

تاريخ القبول: 2019/05/10

تاريخ الإرسال: 2019/04/03

قراءة جديدة لظاهرة التّمفصل المزدوج عند أندري مارتيني

Duality of patterning according to "André martinet"

د/ موسى لعور

laaouar.moussa@yahoo.fr

جامعة محمّد البشير الإبراهيمي، قسم اللّغة والأدب العربي، كآية الآداب واللّغات

مَلْعَصْرُ الْعِلْمِ

في هذه الدراسة نناقش خاصية من أهم خصائص اللّغة الإنسانية، التي حضيت بأهمية كبيرة من لدن اللسانيين وتم تسليط الضوء عليها على أنها ميزة بنيوية أساسية شاملة والمتمثلة في ظاهرة التّمفصل المزدوج.

هذه الظاهرة حسب مارتيني تسمح للغة بالتّمفصل إلى مستويين، مستوى الوحدات غير الدالة (الفونيمات) ، التي لا تحمل دلالة في ذاتها تشكل عند اندماجها وحدات ذات دلالة تسمى (المونيمات) التي هي الأخرى تندمج مشكلة سلسلة كلامية كفيّلة بتحقيق التواصل اللغوي.

الكلمات المفاتيح: التّمفصل المزدوج؛ الفونيم؛ المونيم؛ الاقتصاد اللغوي

Abstract

We are in this study going to discuss one particular feature of human language that has received considerable attention by linguists, and been highlighted as a 'fundamental universal structural characteristic is duality of patterning Also known as double articulation.

duality of patterning - as andré martinet says - is a property of language that allows a combinatorial structure on two levels ,where meaningless sounds called phonemes (the smallest meaning-differentiating elements of a language that do not themselves have meaning) can be combined into monemes (the

smallest meaningful elements) in which these monemes can be combined into larger structures, duality of patterning is the property that allows human languages to create a large lexicon from a few distinct signals.

Key words: duality of patterning; phoneme; monemes.



توطئة:

المطلع على الدراسات والنظريات اللسانية الحديثة يلقي تناقضات كبيرة بين أصحاب الاتجاهات المختلفة، مرد ذلك كون اللسانيات بصفة عامة علم حديث النشأة، إذ لم يصل إلى مصاف العلوم الأخرى، الإنسانية منها أو الدقيقة.

وتعتبر الأفكار التي جاء بها اللساني السويسري فردينان دي سوسير قاعدة لأغلب الدراسات والبحوث اللسانية التي تلت نشر كتابه الشهير "محاضرات في اللسانيات العامة" cours de linguistique générale " داعيا من خلاله إلى دراسة اللغة وفق المنهج البنوي والاستعانة بالعلوم الدقيقة والتطور الذي وصلت إليه.

وقد سار في ركاب هذا المنحى العديد من اللسانيين الأوروبيين والأمريكيين، الذين انقسموا إلى فريقين متباينين، فريق مقلد اجترأ أراء دي سوسير في قالب آخر وفريق مجدّد جعل من مبادئ دي سوسير منطلقا لنظريات جديدة وفق منظوره الخاص، ومن بين المجدّدين الفرنسي أندري مارتيني الذي يعد رأس الاتجاه الوظيفي.

أما اللسانيون العرب فقد كانوا أقرب إلى التقليد منهم إلى التجديد، وذلك بنقلهم للنظريات الغربية إلى اللغة العربية نقلا أصما، متجاهلين عن قصد أو عن غير قصد خصوصية اللغة العربية، منتجين لنا نظريات لسانية معربة بدل نظريات لسانية عربية، وسعيا منا لبناء قاعدة متينة ينطلق منها كل باحث يروم دراسة اللغة من منظور وظيفي أعدنا قراءة ظاهرة التمثيل المزوج عند مارتيني مبينين في أي مستوى تكون فيه هذه الظاهرة مشتركة بين جميع اللغات وفي أي مستوى يجب احترام خصوصية كل لغة.

إنّ هذه القراءة تتطلب الإجابة عن الإشكالات الآتية:

- ✓ ما المقصود بالتمفصل المزدوج عند مارتيني؟
- ✓ ما علاقته بالاقتصاد اللغوي؟ ثم ما هي مستويات هذا التمفصل والوحدات التي ينبني عليها؟
- ✓ إلى أي مدى يصدق تحليل مارتيني إلى مونيمات ثم إلى فونيمات على اللغات الأخرى؟

أولاً: اندريه مارتيني André martinet

ولد مارتيني عام 1908، درس في السوربون، ثم في برلين، شغل منصب أستاذ في كلية الدراسات العليا في باريس، وانتقل إلى كولومبيا في نيويورك ليشغل منصب أستاذ اللسانيات العامة، ورئيس قسم اللغويات سنة 1947، وعاد في 1955 إلى المعهد الذي كان يدرس فيه في باريس، كما كان عضواً في الأكاديمية الدانمركية والفرنسية، ومهما يكن فإنّ مارتيني قد تأثر بشكل كبير بالتفكير البراغي - الحلقة اللسانية لبراغ CLP - في مرحلة مبكرة جداً على الرغم من أنّه لم يعيش في براغ، توفي عام 1999¹.

له ما يقارب العشرين مؤلفاً كلها في اللسانيات، منها ما أحدث ثورة في هذا المجال ومنحه شهرة عالمية خصوصاً ما قام به في أواسط القرن الماضي، حيث أطلق أندريه مارتيني نظرية "الوظيفية" في اللغة وطوّر مبادئها، مشدداً في مجمل طروحاته على مسلمة أساسية مفادها أن النظرية اللسانية ينبغي على الدوام ألاّ تحوّر بأي شكل كان الحقيقة اللغوية. هذه المسلمة شكلت حجر الرحي في نظريته المعروفة، وتمحورت حولها أغلب كتاباته ومؤلفاته. وفي حقبة الخمسينيات، عمّق مارتيني تفكيره حول موضوع التطور الصوتي الذي أوصله فيما بعد إلى نشر مؤلّف حول علم الأصوات التاريخي بعنوان اقتصاد التغيّرات الصوتية *économie des changements phonétiques* وقد استعمل في هذا المؤلّف - ودون أن يردّ أبحاث علماء فقه اللّغة الأكثر تقليدية - كل المعطيات التي تراكمت بأناء من قبل

هؤلاء، وذلك بعد توضيحها وترتيبها في ضوء نظريته الفونولوجية. وقد أدى نشر هذا المؤلف في العام 1955 إلى حصوله على شهرة عالمية² لكننا سنركز في بحثنا هذا على ما أورده مارتيني من أفكار أساسية فيما يخص قضية التمثيل المزدوج التي نشرها وأوضح أسسها في كتابه الموسوم بعناصر اللسانيات العامة *éléments de linguistique générale*.

ثانيا: اللغة عند مارتيني

يعرف مارتيني اللغة في كتابه - عناصر اللسانيات العامة- *éléments de linguistique générale* بقوله:

« Une langue est un instrument de communication selon lequel l'expérience humaine s'analyse, différemment dans chaque communauté (...), en unités douées d'un contenu sémantique et d'une expression phonique: les monèmes; cette expression phonique s'articule à son tour en unités distinctives et successives, les phonèmes, en nombre déterminé dans chaque langue, dont la nature et les rapports mutuels diffèrent eux aussi d'une langue à l'autre. »³

من هذا التعريف وما قبله يمكن القول بأن مارتيني يعتبر اللغة نتاجا إنسانيا ووسيلة ناجعة للتواصل بين الأفراد والمجموعات، ويعترف باختلافها من جماعة إلى أخرى، إلا أنها تلتقي جميعها في وظيفتها الأساسية المنوطة بها ألا وهي التواصل، وإن كان قد أشار إلى وظائف أخرى اعتبرها ثانوية، ثم أكد أنّ اللّغة بنية يستعملها الإنسان ليتّرجم بها خبراته وواقعه ويسعى بها إلى تلبية حاجات التواصل دون أن ينفي عنها التطور عبر الزمن، ومن هنا يطرح مارتيني دراسة بنية اللغة في إطار الوظائف الكفيلة بها، وذلك للوقوف على آليات عملها وكيفية نقلها للتجارب والخبرات الإنسانية، ثم يعرج -في تحليله وتعريفه للغة الإنسانية عموما- بأنّها تملك خاصية التمثيل التي تسمح بتجزئة المتوالية اللغوية إلى وحدات ذات محتوى دلالي وصورة صوتية (المونيمات)، وهذه الوحدات هي الأخرى تتكون من وحدات محددة، متوالية

تسمى (الفونيمات) ذات عدد محدود في كل لغة، حيث تختلف في طبيعتها وعلاقتها بعضها ببعض من لغة إلى أخرى.

ثالثا: التمفصل المزدوج la double articulation

تجدر الإشارة إلى أن مصطلح التمفصل اللغوي بصفة عامة؛ أي ظاهرة تمفصل اللغة إلى مستويات، لم تظهر عند مارتيني أول الأمر، فقد نصّ أرسطو بأن الصوت اللغوي البشري يتميز عن صوت الحيوان، كونه قابلا للتمفصل، كما أنّ دي سوسير أشار إلى الأمر، مؤكداً أنّ الكلام يمكن تجزئته إلى مجموعة من المقاطع⁴، فمارتيني - إذن - لم ينطلق من فراغ ولم يدع ذلك، بل استفاد ممّن سبقه خصوصا محاضرات دي سوسير، فهو متأثر بالمنهج البنيوي في تحليله للظواهر اللغوية، وبالتركيز على هذه الخاصية صاغ نظرية لسانية أثبتت نجاعتها في التعامل مع هذه الظواهر، وهو ما يتجلى في قوله -في الفصل الأول من كتابه- معلّلا التمفصل المزدوج:

"On entend souvent dire que le langage humain est articulé(...) il convient toutefois de préciser cette notion d'articulation du langage et de noter qu'elle se manifeste sur deux plans différents..."⁵

مما سبق يمكن القول بأن مارتيني اعتبر أن ظاهرة التمفصل معلومة عند الأغلبية، ثم حدّد نوعية هذا التمفصل، وكيف يكون، حيث يضيف بأنّه يكون على مستويين. ومحاولة منا لتقريب الصورة نقوم بتشبيه اللغة بالجسد؛ الذي يقسم إلى أعضاء بحسب المفاصل وذلك على مستويات، مثلا المستوى الأول يجرأ الجسد إلى رأس، جذع، يدين، ورجلين، أمّا المستوى الثاني فيمكن تقسيم الرجل -مثلا- بحسب المفاصل إلى فخذ، ساق، قدم.

ثمّ إنّّه بالرغم من أنّ الترجمة يشوبها نوع من اللامصداقية؛ فضلنا مصطلح التمفصل عن مصطلح التقطيع، فهو بحسبنا أقرب إلى المصطلح الفرنسي articulation. وعودا على بدئ نؤكد أنّ مارتيني اعتبر ظاهرة التمفصل ظاهرة عامة تخص جميع اللغات دون استثناء فهي خاصة إنسانية، كما تجدر الإشارة أيضا إلى أنّ هذا

المفهوم من المبادئ الأساسية التي بنى عليها فرضياته ومن ثم نظرياته اللسانية، وهو صاحب الفضل في تحديده وتوضيح أبعاده ومستوياته، وفي كل هذا مراد مارتيني من التمثيل المزدوج؛ أنّ اللغة تتمفصل إلى وحدات دلالية صغرى تسمى (مونيمات) تحمل صورة صوتية (دال) وأخرى دلالية معيّنة (مدلول)، وهي تشكل التمثيل الأول، ثم التمثيل الثاني المتمثل في تمفصل المونيمات إلى وحدات مميّزة لها دون أن تحمل دلالة تسمى الفونيمات، وهو ما نبسط فيه اليد وفق النحو الآتي:

1. التمثيل الأول la première articulation:

يعرف مارتيني التمثيل الأول بقوله:

"La première articulation du langage est celle selon laquelle tout fait d'expérience à transmettre(...) s'analysent en une suite d'unités douées chacune d'une forme vocale et d'un sens".⁶

وبذلك يكون التمثيل الأول هو الذي يقوم على أنّ كل ظاهرة من ظواهر التجربة البشرية التي نريد تبليغها، تحلل إلى متوالية من الوحدات، لكل منها صورة صوتية ودلالة، حيث يمثّل مارتيني لذلك عن طريق التعريق بين تبليغ الشعور بألم في الرأس بالصراخ؛ الذي يعتبره غير كاف لجعله تبليغا لسانيا⁷، فالصراخ غير قابل للتحليل، خلاف التلفظ بجملة *j'ai mal à la tête* التي يمكن تحليلها إلى وحدات ذات دلالة توظف في سياقات أخرى لتبليغ تجارب مختلفة، مثلا استعمال الوحدة *mal* في سياق آخر كأن نقول *il fait le mal* ومن هنا أسس مارتيني -بهذا التحليل- لنظرية الاقتصاد اللغوي، أي إيصال أكبر عدد من الخبرات باعتماد أدنى مجهود، وهو ما تيسره وتساعد على تحقيقه ميزة التمثيل التي تتفرد بها اللّغة، إذ إن مجموعة محدودة من الفونيمات تجعلنا قادرين على إنتاج عدد هائل من المونيمات، التي بدورها تعطينا القدرة على إنتاج عدد غير نهائي من التعابير.

2. التمثيل الثاني la deuxième articulation:

يضيف مارتيني - في الفصل ذاته- وذلك في معرض شرحه للتمثيل الثاني:

"Chacune de ces unités de première articulation présente(...) un sens et une forme vocale (ou phonique). Elle ne saurait être analysée en unités successives plus petites douées de sens: l'ensemble "tête" veut dire "tête" et l'on ne peut attribuer à te- et à te des sens distincts dont la somme serait équivalente à "tête". Mais la forme vocale est, elle, analysable en une succession d'unités comme "bête", tante ou terre. C'est ce qu'on désignera comme la deuxième articulation du langage".⁸

يحدد مارتيني أنّ المستوى الثاني للتمفصل هو تحليل كلّ وحدة من وحدات المستوى الأول إلى متواليّة من الوحدات، لكن هذا التحليل يخص الصورة الصوتية فقط، إذ إنّ وحدات التّمفصل الأول هي أصغر وحدات ذات دلالة ولا يمكن تحليلها إلى وحدات متواليّة أدنى منها وتحمل دلالة، فوحدة tête إذا تمّ تحليلها إلى te – te فإنّ هذه الوحدات الدنيا لا تحمل دلالة ولكنها متواليّة تساهم كل واحدة منها في تميّز tête عن bête عن terre ...

مما سبق نستنتج أنّ مارتيني في تحليله لمستويات التّمفصل اعتمد على عملية العزل ومن ثمّ الاستبدال ليتمكن من التعرف إلى الفونيم في السلسلة الكلامية. وخالصة القول: استطاع مارتيني أن يبيّن بأنّ أيّ لسان بشري يمكن أن يتمفصل إلى مستويين، الأول يكون إلى وحدات تحمل صورة صوتية ودلالية وهو ما سمّاه "المونيم" والمستوى الثاني يكون بتحليل الصورة الصوتية للمونيم إلى وحدات متواليّة مميّزة له عن غيره من المونيمات سمّاها الفونيمات.

رابعاً: التّمفصل المزدوج والاقتصاد اللغوي

سبق وأن بيّنا أنّ ظاهرة التّمفصل المزدوج هي الأساس الذي أقام عليه مارتيني نظريته التي اشتهر بها، حيث يقول: بأنّ النظام الذي تمّ عرضه - التّمفصل المزدوج- يوجد في كلّ الألسن التي تمّ وصفها إلى اليوم، ويظهر أنّ هذا النظام قد فرض نفسه على المجموعات البشرية بصفته الأنسب إلى حاجات الإنسان وإمكانياته، لا شيء غير الاقتصاد -الناجم عن التّمفصل المزدوج- يمكن من

الحصول على أداة للتبليغ، أداة ذات استعمال عام وقادرة على إيصال معلومات بمقدار مهول وبجهد زهيد⁹

لو انعدم التمهّل الأول الذي يمثّل التجربة في وحدات متوالية لكان وافق كل إرسال لخطاب ضرباً معيّناً من التجربة بحيث أيّ تجربة جديدة مفاجئة، يستحيل تبليغها¹⁰ كما أنّ الاقتصاد الإضافي الذي يعرضه التمهّل الثاني يمكّننا من جعل شكل الدال مستقلاً عن طبيعة المدلول - العلاقة الاعتيادية بين الدال والمدلول - كما أنّه يؤمّن كما هائلاً من الاتزان في الشكل اللغوي، أي أنّ التمهّل الثاني يضمن العلاقة بين الصورة الصوتية (الدال - signifiant) مع معناها، أي مدلولها الخاص (المدلول - signifie). وفي هذا الموضوع أفرد أندري مارتيني مؤلفاً خاصاً تعرض فيه لقضية الاقتصاد اللغوي، وسمه (باقتصاد التغيّرات الصوتية économie des changements phonétiques) الذي يعدّ أعظم عمل له في الفونولوجيا الزمانية، حيث يقول: لا يمكن أن نحصر معنى الاقتصاد في معنى التقدير parcimonie كما فعل ذلك باسي passy حين قابل كلمة الاقتصاد بكلمة التبذير emphase بل إنّ الاقتصاد يشمل كل شيء، تقليص كل تميّز غير مفيد، وإظهار تميّزات جديدة، والإبقاء على الوضع الراهن statu quo فالإقتصاد اللغوي هو التآلف بين كل القوى المتواجدة¹¹

كما يرى مارتيني أنّ الانسان يعيش في صراع قائم بين عالمه الداخلي وعالمه الخارجي، فالعالم الخارجي في تطوّر مستمر، ويتطلب ابتكار مفردات جديدة، والطبيعة الإنسانية الداخلية ميّالة إلى الخمول والجمود، واستعمال النزر القليل من المفردات الموجودة حولها، وبالإضافة إلى هذا فإنّ ثمة صراعا بين حاجيات التواصل التي تؤدي إلى تطوير اللّغة من جهة وخمول الأعضاء ونزوعها إلى الاقتصاد في الجهد الذي تتطلبه عملية التلفظ أو التذكر من جهة أخرى.¹²

خامسا: الفونيم والمونيم وتصنيفاتهما

نؤكد مما سبق أنّ قضية التمثيل المزدوج لا يكاد يختلف عليها اثنان بأنها ظاهرة إنسانية عامة في جميع اللغات، فلا يمكن نفيها أو إسقاطها خصوصا فيما يتعلق بالتمثيل الثاني الخاص بالأصوات والوحدات المحددة، حيث نجد أنّ لكل لسان مجموعة محدودة؛ فالعربية -مثلا- تحتوي على 34 صوتا والفرنسية تملك 36 صوتا والإسبانية لها 27 صوتا... لكن الإشكال يكمن في المفاهيم والتعاريف المختلفة التي أسندت لمصطلحي الفونيم ومن ثم المونيم، لذا فإنّ المطلع على الآراء والتعاريف المختلفة يدرك أنّ مردّ الخلاف هو تنوع أساليب البحث وطرائق المعالجة فالفونيم مثلا يعتبره البعض -بمن فيهم أندري مارتيني- الوحدة الأساسية في التحليل الفونولوجي¹³ بينما تبنى آخرون التحليل المقطعي.

1. الفونيم phonème:

يعرّف مارتيني الفونيم بأنه عبارة عن أصغر وحدة تميّزية، يمكن التعرف إليه عن طريق العلاقة التي تربطه بالعناصر المجاورة له كما سبق وبيّنا ذلك في المونيمات tête tête... فالفونيم /t/ هو وحدة تميّزية للمونيم tête عن المونيم tête الذي يتميّز هو الآخر بالفونيم /b/ كما ينص مارتيني بأنّ الفونيم يختلف عن الصوت وعن الحرف، وبأنّ الفونيمات فيما بينها تتميز عن بعضها البعض بما سماه la pertinence أي الفونيم المناسب في المكان المناسب ودرجة تأثيره في السلسلة الكلامية، وللتعرف عليه نقوم بعملية العزل والاستبدال؛ التي تتبعها عملية معقدة لتحديد كل فونيم، تلك الوحدة الصوتية الوظيفية الصغرى التي تستمد أهميتها من الوظائف التي تقوم بها الوظيفة التميّزية، التقابلية، التعبيرية¹⁴ ويعطي عن كل وظيفة أمثلة ثم يبيّن أنّ الفونيمات يجب دراستها في حيزها الخاص بها فهناك اختلافات لا حصر لها بين اللغات، ومن أمثلة ذلك يقول مارتيني: إنّ الصوت نفسه يمكن أن يعتبر فونيمًا كونه يملك وظيفة معيّنة في السلسلة الكلامية ويكون صوتا مهملا في لغة أخرى ويذكر أمثلة مختلفة منها الفونيم /r/ في الفرنسية الذي يقابله

فونيمين مختلفين تماما في اللغة العربية /غ/ و/ر/ الأمر الذي لا نجد في الفرنسية فالصوتان: /غ/ و /ر/ هما صوتان لفونيم واحد فتوظيف الأول أو الثاني ليس له أي تأثير وظيفي¹⁵

بالنظر إلى التعريفات التي قدمها مارتيني للفونيم يظهر أنه حدّد وظيفة اللساني في دراسته للفونيمات بأن يهتم بالوظيفة التي تقوم بها، وبذلك فإنّ مصطلح فونيم يعبر عن كل وحدة صوتية تؤدي وظيفة، وتحديد اختلافها وتشابهها لا يكون على أساس الدراسة التشريحية لهذه الأصوات فهي وظيفة علم الأصوات la phonétique وإنما بالنظر إلى وظيفتها، وعلى هذا الأساس يتم اعتماد القيم الخلفية وتصنيف هذه الوحدات، ومن ثم تحديد أوج التشابه والاختلاف بينها وهذا بالتحديد ما تقوم به الفونولوجيا حسب مارتيني.

ثمّ إنّ جب التنبيه إلى أن مارتيني في تعامله مع الأصوات كوحدات مستقلة اعتبر الظواهر الصوتية فوق مقطعية هامشية - حتى وإن تناولها بالدراسة- فهو لم يهمل السياق بصفة نهائية، بل اعتبر هذه الظواهر- فوق مقطعية- كالنبر والتغيم والشدة...بأنّها لا تشملها عملية التمثيل المزدوج، ونورد له توضيحا حيث يقول:

"Rôle marginale des signes prosodiques:

On est naturellement tenté d'identifier unités significatives et unités de première articulation. Mais il faut ne pas oublier qu'un trait prosodiques, comme la montée de la courbe mélodique qui fait d'il pleut? (...) la montée de la courbe, (...). Il y a donc des signes qui ne se conforment pas à la double articulation. Ces signes jouent, dans les communications humaines, un rôle qui n'est pas négligeable. Mais on doit les considérer comme marginaux parce qu'un énoncé n'est proprement linguistique que dans la mesure où il est doublement articulé".¹⁶

2. المونيم monème:

ننتقل بعد هذه المحاولة لشرح مصطلح الفونيم عند مارتيني إلى مصطلح المونيم الذي اعتبره مارتيني صعب التحديد بدقة وإن كان يعرفه بأنه أصغر وحدة تحمل

صورة صوتية ودلالة، لكن عند التقطيع ما هي الحدود التي عندها نعتبر أنّ هذا مونيم أم لا ؟ وما أنواعه وأقسامه؟

يعترف مارتيني بأنّ عملية تحديد المونيم بدقة تتميز بالتعقيد وإن كان هذا يعود حسب اللغة المدروسة، كما يختلف أيضا من مونيم إلى آخر¹⁷ ولذلك حدّد أنواع المونيم بالنظر إلى وظيفته داخل السلسلة الكلامية لبناء رسالة تستجيب لحاجات التواصل اللساني وصفه بحسب جهاز مفاهيمي دقيق يتضمن مجموعة من المصطلحات نعرضها فيما هو آت معتمدين في هذا التصنيف على عملية العزل ثم الاستبدال.

وتجدر الإشارة إلى أنّ مارتيني بيّن بأنّ بعض المونيمات بمقابلتها إلى الفونيم لا تتمتع بالتأثير *la pertinence* الذي يتمتع به الفونيم، لذلك فإنّ هناك مونيمات تملك الحرية في الحركة داخل السلسلة الكلامية دون أن يؤثر ذلك في فحوى الرسالة المراد تبليغها عكس الفونيم الذي يتميز بالثبات داخل السلسلة ولا يجوز تغيير موضعه.

ثمّ إنّ مارتيني صنّف المونيم إلى عدة أنواع حسب ما تقتضيه وظيفته داخل السلسلة الكلامية، إلّا أنّنا نكتفي بذكر أهم الأنواع محاولين توضيح كل نوع بالشرح مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ هذه الأنواع ليست بالضرورة متقابلة حيث يمكن توفرها مجتمعة في السلسلة الكلامية أو مجموعة منها، ومنها ما هو ضروري فلا يتم المعنى المراد من الرسالة إلّا بوجوده ومنها ما هو ثانوي، وذلك بالنظر إلى المستوى التركيبي ولكن لا غنى عنه من الناحية الدلالية.

أ) المونيم المستقل: *le monème autonome*

يعرفه مارتيني بأنّه المونيم الذي يتميّز بالاستقلالية داخل السياق سواء من حيث مكانه في السلسلة الكلامية أم من حيث دلالاته، كما أنّه -في الغالب- يحمل وظيفة مرجعية وتعريفية بالنسبة لعناصر السلسلة الأخرى، ويمثل له بالمونيم *hier* في السلسلة الكلامية "*hier, il y avait fête au village*" فهو عبارة عن مونيم

مستقل يحمل دلالة في ذاته ويتمتع بالحرية داخل السلسلة الكلامية فلك أن تبدأ به السلسلة أو تختتم به فالأمر سيان¹⁸.

(ب) المونيم الوظيفي *le monème fonctionnel*:

يعتبر مارتيني المونيم الوظيفي كل مونيم تمّ وضعه في اللّغة بهدف تحديد وظائف مونيمات أخرى فلا يعقل أن نجعل لمن قام بالفعل ومن وقع عليه الفعل ومن تمّ لأجله الفعل مونيمات مستقلة، واستنادا إلى نظرية الاقتصاد اللغوي فإنّ المونيم الوظيفي وُجد لتحديد وظيفة مونيمات أخرى، ومن هنا فإنّ المونيم الوظيفي هو كل مونيم يحدد وظيفة مونيم آخر يرتبط به، وبذلك لا يكون هذا النوع مونيمًا إلا داخل السلسلة الكلامية، أي بالنظر إلى وظيفته، فإن نظرنا إليه منعزلا لم يعد مونيمًا لأنّه يفقد دلالاته كحروف الجر في اللغة العربية، وهذا دفعا للتناقض بين التعريف الأساسي للمونيم بأنّه أصغر وحدة تحمل دلالة، فدلالة المونيم الوظيفي تظهر داخل السياق وتختفي خارجه.

(ج) المركب المستقل *syntagme autonome*:

يعرف مارتيني المركب المستقل بأنّه مجموعة من المونيمات داخل السلسلة الكلامية حيث تكون العلاقة بينها وثيقة جدا تجعل منه وحدة وظيفية مستقلة لا يمكن تفكيك عناصرها بدون أن تتغيّر دلالتها، تلك الدلالة التي تضبط علاقته بباقي الوحدات وكأنّه مونيم واحد، والذي يعتبره مارتيني بديلا عن مصطلح كلمة *mot*، فهو يفضل استعمال مصطلح "مركب مستقل" على مصطلح "كلمة"، وفي الغالب -حسب مارتيني وتحديدا في اللغة الفرنسية- يكون المركب المستقل *le syntagme autonome* يحتوي على مونيم وظيفي حيث لا يشترط أن يكون سابقا للمونيمات الأخرى المكوّنة للمركب المستقل أو لاحقا لها، وفي هذا الباب يذكر مارتيني -مفصلا- الغموض الذي يمكن أن يقع فيه اللساني أو كل من يدرس اللغة في تحديد عناصر *syntagme autonome* والمونيمات المشكلة له؛ فيذكر تقسيما آخر للمونيم في هذا السياق وهو المونيم المعجمي *monème lexical* أو ما اصطلح

عليه بـ *lexèmes* موضحاً أنّ هذا النوع نجده في المركب المستقل؛ الذي يرتبط غالباً بمونيم وظيفي أو مونيم إضافي وله دلالة في ذاته ويكون غالباً في شكل جذر، ثمّ يقابله بالمونيم النحوي *le monème grammatical* أو ما اصطلح عليه بـ *morphème* وهو يملك خاصية التبادل في مواضع معيّنة مع غيره من المونيمات، ويعطي مثالا في اللغة الفرنسية بمحددات الجنس والعدد، وفي اللاتينية النواصب وأدوات الإضافة والجر.. وهذه المونيمات النحوية تشكل مجموعة مغلقة لكنها مستعملة بكثرة، عكس المونيمات المعجمية؛ التي تشكل مجموعة مفتوحة وعددها أكبر لكن استعمالاتها تكون بدرجة أقل من المورفيم.

ثمّ يبيّن بعد ذلك الفرق بين المونيم الوظيفي والمونيم الإضافي *monèmes* *additionel* أو *modalites*؛ الذي وظيفته التعريف ويبيّن أن المونيم الوظيفي يحدّد وظيفة ما يرتبط به، مثلاً *en voiture* فالمونيم *en* هو مونيم وظيفي، بينما أدوات التعريف وكل ما من شأنه أن يعرّف المونيم الذي يرتبط به؛ فهو مونيم إضافي، مثلاً *petit bateau* مونيم *petit* هنا هو مونيم إضافي غير وظيفي فهو لا يحدّد وظيفة *bateau* وإنّما يعرّفه¹⁹ ويكون في صورة اسم أو فعل أو أداة.

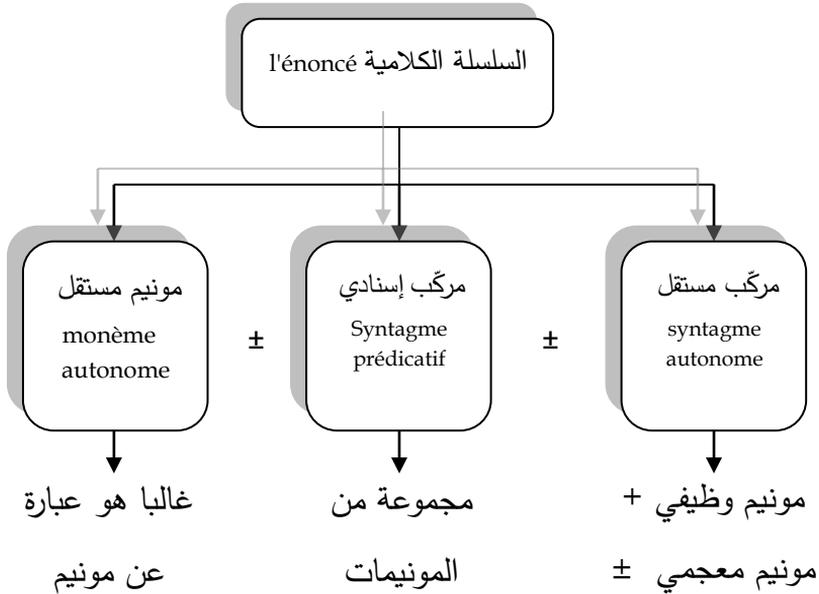
كما لا يجوز الخلط بين المونيم الوظيفي والمونيم النحوي وإن كانت بعض الصور الصوتية *signifiants* تعبّر أحيانا عن مونيم وظيفي وفي سياق آخر عن مونيم نحوي، ومن أجل التقريب يجب دائما حسب مارتيني العودة إلى وظيفة المونيم في السلسلة الكلامية وبذلك يسهل على من يقوم بالتقطيع تحديد نوع المونيم بسهولة.

(د) المركب الاسنادي *le syntagme prédicatif*:

يمكن اعتبار هذا النوع هو التقسيم الأخير الذي قدمه أندري مارتيني للمونيم، معرّفاً إيّاه بأنّه مجموعة من المونيمات، لكن يعتبره النواة الوظيفية للسلسلة الكلامية، فهو العنصر الأساسي في الرسالة المراد تبليغها وكل المونيمات الأخرى التي ترتبط به تخدمه لتحقيق التواصل على أكمل وجه، وفي حالات وجوده منفردا في السلسلة الكلامية كقيل بتأدية الرسالة، حيث يذكر مارتيني المثال ذاته: *hier, il y avait*

fête au village حيث يعتبر hier مونيميا مستقلا والمونيم au village مركبا مستقلا، فإن قرّر المتكلم الاستغناء عنهما تبقى السلسلة الكلامية ذات دلالة واضحة il y avait fête وهذا العنصر هو الذي اصطلح عليه مارتيني بالمركب الإسنادي ²⁰syntagme prédicatif

وللتوضيح أكثر نلخص ما سبق في المخطط الآتي:



مخطط توضيحي لأنواع المونيم عند أندري مارتيني

سادسا: التفصيل المزدوج في اللغة العربية:

إذا أردنا تطبيق ظاهرة التفصيل المزدوج على اللغة العربية بالشكل الذي قدمه أندري مارتيني؛ فإن ذلك يعتبر - في بعض الأحيان - شبه مستحيل، نظرا للاختلافات الكبيرة بين اللغة العربية واللغات الهندوأوروبية عموما - التي أقام عليها دراسته - وأول مشكلة يمكن أن يصادفها اللساني في عملية التقطيع هو الإهمال الواضح للظواهر فوق مقطعية في هذه الطريقة، وهو ما لا يمكن قبوله إن اعتبرنا أنّ اللغة أداة للتواصل، وأنّ هذا التواصل لا يتحقق إلا بالتحام وحدات صوتية غير دالة مشكلة

وحدات دالة، ومنه سلسلة كلامية؛ يحاول من خلالها المرسل تبليغ خبراته وتجاربه للآخرين²¹ لذا فإنه لا يمكن بأيّ وجه من الأوجه إهمال وظيفة هذه الظواهر فوق مقطعية، إذ كيف لنا التفريق بين صيغة سؤال وصيغة إخبارية إذا كانت كلتاها تحملان الوحدات نفسها سواء من حيث التمثيل الأول أم الثاني، مثلاً أن تسأل أحداً بعبارة "دخل فلان" أو أن تخبره بذلك لا يمكن وصول الرسالة كما ينبغي إلا من خلال النبر وهو ما لا يظهر في التمثيل المزدوج هذا من جهة، ثم من جهة أخرى بالنظر إلى المستوى الثاني للتمثيل فإنّ اللغة العربية تمتلك فونيمات لا تظهر في التمثيل المزدوج عند مارتيني، إذ بحسب الفونيم هو أصغر وحدة غير دالة لكنها تمتلك صورة صوتية، ونحن نجد في العربية الحركات القصيرة كالفتح والضم والكسرة لا تمتلك صورة صوتية ولا تحمل دلالة في ذاتها ومع ذلك لها وظيفة محدّدة، فالتفريق بين "بر" و "بُر" و "بُر" لا يكفي باستعمال الفونيمات حسب التعريف الذي قدّمه مارتيني، كما لا يخفى على أحد الوظيفة المركزية التي تقوم بها هذه الحركات في السلسلة الكلامية في اللغة العربية، فهي الأدوات التي تحدد الوظيفة الإعرابية للمونيمات، فإن اعتبرنا أن الحركات القصيرة في اللغة العربية هي "فونيمات" بالنظر إلى وظيفتها، لا يمكن ذلك بالنظر إلى التعريف الذي قدّمه مارتيني - لا يلام على ذلك- إذ كان موضوع دراسته اللغة الفرنسية، لذلك لم يدرك هذا المستوى من الوحدات التي لا تحمل لا دلالة ولا صوتاً، ومع ذلك لها وظيفة محورية في اللغة العربية، كما وجب لفت الانتباه إلى ظواهر أخرى تختص بها اللغة العربية مثل: التفخيم، الإمالة، الإعلال، الإبدال... وغيرها مما لا يظهر في مستوى التمثيل الثاني.

كما نلني اختلافات في مستوى التمثيل الأول (المونيمات)، إذ إن اللغة العربية تتمتع بخاصية لا تشترك فيها مع اللغات الهندوأوروبية ولها تأثير في ظاهرة التمثيل المزدوج ممثلة في الرتبة المحفوظة وغير المحفوظة، ففي حالة الرتبة المحفوظة؛ لا يجوز فصل المونيمات بعضها عن بعض، فالمرسل ملزم بترتيب معيّن

لتبليغ الرسالة، وهو ما نجده كذلك في اللغات الهندوأوروبية عموماً، حيث تتميز بالخطية واحترام الرتبة نسبياً، ولكن الاختلاف يكون في الرتبة غير المحفوظة إذ إن المتكلم العربي له أن يقدم ويؤخر المونيمات حسب مقتضى الحال ويبقى كلامه بليغاً، أما المتكلم الأوروبي الفرنسي تحديداً ملزم بأن تشكل المونيمات متوالية معينة لا يحيد عنها.

وبالنظر إلى أنواع المونيمات عند مارتيني، نجد أنّ اللغة العربية تمتلك مونيمات تختلف عن مثيلاتها في اللغة الفرنسية، فكل الأنواع التي قدمها مارتيني نجد لها مقابلاً في اللغة العربية، لكن العكس غير صحيح، فهناك مونيمات في اللغة العربية لا مقابل لها في اللغة الفرنسية، ومثال ذلك الصيغ الصرفية...

نستنتج أنّ ظاهرة التمثيل المزدوج؛ وإن كانت تشمل كل الألسن، إلا أنّ مستوياتها ووحداتها تختلف من لغة إلى أخرى.

محصول الحديث:

بعد عرض التصنيفات التي قدمها مارتيني في تحديد المونيمات والتعرف إليها نستنتج أنّ عملية التمثيل المزدوج هي حجر الأساس في هذا التحديد، إذ تعتبر من الركائز الأساسية في نظريته اللسانية، هذه النظرية التي اعتمدت على الوصف والتصنيف بطريقة واضحة وعلمية جعلتها تختلف عما كانت عليه في اللسانيات التقليدية، وهو ما نلمسه في الانتقادات التي وجهها مارتيني -بين طيات كتابه- *éléments de linguistique générale* لمن سبقه في معالجة القضايا اللسانية، خاصة قضايا المورفولوجية والفونولوجية، حيث يؤكد على دراسة الوحدات المكوّنة للسلسلة الكلامية باعتبار الدال والمدلول مع ضرورة التركيز على المدلول، ثمّ على وظيفة هذه الوحدات في ترابطها بعضها ببعض خدمة للوظيفة الأسمى للغة الممثلة في التواصل، ليكون أندري مارتيني -بذلك- رائد المدرسة الوظيفية الفرنسية بلا منازع، كما نوه إلى خصوصية كل لغة في هذا التحليل، فلا يحق لأحد أن يعتمد تحليل مارتيني كما هو محاولاً تطبيقه على لغات أخرى غير الفرنسية تطبيقاً أعمى،

وهو ما نلفيه عند السواد الأعظم من اللسانيين العرب متناسين خصوصية اللغة العربية؛ كونها لغة سامية إعرابية، وأنّ الظواهر فوق مقطعية تؤدي دورا مركزيا في التواصل اللساني العربي عكس ما اعتبره مارتيني -فيما يخص اللغة الفرنسية- وفي هذا المقام ننقل كلمات مارتيني -بالتصرف- في الحوار الذي أجراه معه الدكتور نادر سراج، حيث أكد مارتيني بأنّ اللسانيات الوظيفية هي لسانيات تهدف إلى أن تكون واقعية، لهذا نقابل في أحيان كثيرة بعدم الرضا، فالناس حسبه ميالون جدا للمقولات العامة، ثم يضيف في موضع آخر من الحوار بأنّه يجهل اللسان العربي وإن كان قد تطرق إلى مسائل فونولوجية تخص هذا اللسان مستعينا في ذلك بأشخاص ينطقون بهذه اللغة، قبل أن يبدي رأيه ويضيف بأنّه كان دائما مأخوذا بظاهرة غريبة لا نجدها في أيّ لسان غير اللسان العربي، وهي ظاهرة التلفظ لفونيم واحد بطرائق مختلفة، دون أن يصل إلى تفسير لهذا التطور الخاص الذي لحق ببعض أصوات اللسان العربي، ثمّ يضيف بأنّ العربية تُعرف بوجود نوع تلفظي خاص بها يسمّى بشكل عام التقخيم²²، إلى غير ذلك من الخصائص التي تميّز العربية عن غيرها من اللغات، ولهذا على اللسانيين العرب الأخذ بعين الاعتبار الفوارق وخصوصيات اللغة العربية، ومحاولة إرساء نظرية وظيفية عربية، تعتمد في تحليلها على نصوص عربية أصيلة، مستأنسين في ذلك بأطروحات مارتيني في هذا المجال، إذ إنّ نظريته تميّز بقدر كبير من الصلابة العلمية، وذلك فيما يخص منهجية البحث وطرائق التحليل، كما أنّها توفر إطارا إجرائيا في تطوير مناهج وطرائق تعليم اللغة وتعلّمها، وهذا ما يجعلنا نخلص إلى أنّ نظرية مارتيني عامّة وشاملة من حيث المنهج وطرائق التحليل، وأنّها خاصة وغير شاملة من حيث البنى الناجمة عن هذا التحليل.

الهوامش والمراجع المعتمدة

- 1 أحمد عزوز، المدارس اللسانية أعلامها، مبادئها ومناهج تحليلها للأداء التواصلية، دار الرضوان، وهران، ط2، ص 151
- 2 نادر سراج، "مبدأ الاقتصاد بين النظرية اللسانية والحقيقة اللغوية"، جريدة المستقبل، بيروت، لبنان، الأحد 5 سبتمبر 2005،
- 3 André martinet, élément de linguistique générale, nouvelle édition remaniée et mise à jour, éd.- Armand colin, Paris, p20
- 4 ينظر: محمد الفتحي، "انتظام مستويات اللغة في اللسانيات البنوية"، مجلة تباين، العدد 3/11، 2015، ص70
- 5 André martinet, éléments de linguistique générale, p13
- 6 Ibid., p13
- 7 ينظر: أندري مارتيني، مبادئ اللسانيات العامة، تر: سعدي زبير، دار الآفاق، الجزائر، ص18
- 8 André martinet, éléments de linguistique générale, p15
- 9 أندري مارتيني، مبادئ اللسانيات العامة، تر: سعدي زبير، دار الآفاق، الجزائر، ص21
- 10 المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- 11 André martinet, économie des changements phonétiques, berne, Franke édition, 1955, p97
- 12 أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2002، ص155
- 13 André martinet, éléments de linguistique général, p160
- 14 Ibid. p62
- 15 Ibid., p63
- 16 Ibid., P101
- 17 Ibid., P 105
- 18 Ibid., p111
- 19 Ibid., p119

20 Ibid., pp 123-124

21 Ibid., p 20

22 ينظر: نادر سراج، لقاء مع مفكر، مجلة الفكر العربي، بيروت، لبنان، جويلية 1984، ص 370